٩. تفسير القرآن بالقرآن(*)

معنى التفسير:

التفسير فى اللغة يرجع إلى معنى الإظهار والكشف، وأصله كما يقول الزركشى فى كتابه: «البرهان» مأخوذ من التفسرة.

والتفسرة كما يقول صاحب «اللسان» : هى البول يستدل به على المرض، وينظر فيه الأطباء يستدلون بلونه على علة العليل. وكذلك المفسر يكشف عن شأن الآية، وقصصها، ومعناها، والسبب الذى أنزلت فيه، وهو كأنه تسمية بالمصدر، لأن مصدر فعّل جاء أيضاً على تفعلة نحو: جّرب تجربة، أوكرّم تكرمة.

وفى رأى ابن الأنبارى أن أصل التفسير مأخوذ من قول العرب: فَسَرتُ الدابة، وفسَّرتها إذا ركضتها وهى محصورة لينطلق حصرها، وعلى هذا المعنى يصير معناه إلى الكشف أيضاً.

ومعنى التفسير على هذا الرأى : كشف المغلق من المراد بلفظه. والفعل منه يأتى مزيدا وغير مزيد، يقال: فسرت الشىء أفسره تفسيراً، وفسرته أفسره فسرا، وقد سمى ابن جنى كتبه الشارحة: الفسر وهى مصدر فسر.

والرأى الذى أميل إليه ، لأنه أوضح فى مجال الدلالات، وعلاقات المعانى أن التفسير أصله، سفر لافسر، وضعت الفاء موضع السين على أساس القلب المكاني، والقلب المكانى باب معترف به فى مجال اللغة، وسفر معناها: الكشف ، يقال: سفرت المرأة سفورا إذا ألقت خمارها عن وجهها وهى سافرة، وأسفر الصبح: إذا أضاء.

وإنما بنوه على التَّفعيل فقالوا: التفسير، لأنه للتكثير كقوله تعالى : «يذبّحون أبناءكم»، «وغلّقت الأبواب» فكانه يتبع فى تفسيره سورة بعد سورة، وآية بعد أخرى.

والتفسير معناه فى اصطلاح المفسرين: علم نزول الآية وسورها وأقاصيصها، والإشارات

(*) نشر فى مجلة الوعى الإسلامى ـ يوليو سنة ١٩٧٢ .

النازلة فيها، وترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها، وعامها، ومطلقها، ومقيدها، ومجملها، ومفسرها.

ومما لاريب فيه أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، ولغة العرب فى هذه الفترة من التاريخ كانت مضرب المثل فى رصانة الألفاظ، وبلاغة المعانى، وقوة التراكيب .

وقد برزت خصائصها كاملة فى الشعر العربى مما جعل بعض العلماء يقول: «ولو وجد أرسطو فى شعر اليونان ما يوجد فى شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال، والاستدلالات، واختلاف ضروب الإبداع فى فنون الكلام لفظاً ومعنى، وتبحرهم فى أصناف المعانى وحسن تصرفهم في وضعها، ووضع الألفاظ بإزائها ، وحسن مآخذهم وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا ـ لزاد على ما وضع من قوانين الشعر».

ومع قوة اقتدارهم فى فنون القول تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بمثله، أو بعشر آيات منه، أو بأقصر سورة من سوره ، فعجزوا بعد أن حاولوا، وصدق الله العظيم حين يقول: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾.

ومما لاشك فيه أن هذا يدل على أن كلام الله لايشبهه كلام فى مجال الفصاحة والبلاغة، والتصرف البديع، والمعانى اللطيفة ، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب فى البلاغة، والتشابه فى البراعة.

ولنا أن نتساءل: هل القرآن الكريم الذى بلغ هذه الذروة فى فصاحة الكلمة وبلاغة المعنى يفهمه العرب جميعاً، ولايحتاجون فى مجاله إلى بيان أو تفسير؟

وللإجابة عن هذا السؤال أقول : إن من المفكرين العرب من يرى هذا الرأى كابن خلدون الذى نص فى مقدمته على : «أن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه».

وفى رأيي أن ابن خلدون تجاوز الحقيقة فى هذا الرأي، وذلك لما يأتى: ـ

١ ـ لغة العرب لم تكن ممثلة فى لهجة واحدة، حقا قال الرواة : إن القرآن الكريم نزل

بلهجة قريش لأن قريشا ـ كما يقول أبو نصر الفارابي في كتابه المسمى (بالألفاظ والحروف) ـ كانت أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق.

أو كما يقول أبو حاتم الرّازى فى كتابه :«الزينة» بصدد لهجة قريش :«إن رسول الله ﷺ الذى نزل القرآن الكريم على قلبه لينذر قومه أفصح العرب، وهومن قريش، من ولد إسماعيل، وولد إسماعيل أفصح من اليمن الذين هم من ولد يعرب بن قحطان».

ولكن مع هذه النصوص لاأميل إلى أن القرآن الكريم نزل بلهجة قريش وحدها بل نزل بها وبغيرها من اللهجات العربية الأخرى لأن هنالك نصوصا تؤكد أن القرآن الكريم نزل بسبعة أحرف ليبسر للعرب جميعا الانتفاع به، ومعنى ذلك أن هذه الأحرف تشتمل على كثير من اللهجات العربية، وحوادث اختلاف القراءات بين الصحابة تعدّدَت سجلتها كتب الرواة والتاريخ. وإذا كان الأمر كذلك فإن كثيرا من الأحرف التى نزل بها القرآن لايعرفها العرب جميعا، وتحتاج إلى بيان وتوضيح، وتفسير لمعانيها، والأمثلة على اختلاف مدلولات الكلمات باختلاف اللهجات كثيرة، وإلى القاريء طائفة منها لتكون دليلا على ما أقول:

ذكر إسماعيل بن عمرو المقرىء فى كتابه الشهير (اللّغات فى القرآن) الأمثلة الآتية من سورة البقرة.

«رغدا»	آية ٣٥	= الخصب بلغة طيىء.
«فأخذتكم الصاعقة»	آية ٥٥	= الموت بلغة عمان.
«رجزا»	آية ٥٩	= العذاب بلغة طيىء.
«اشتروا»	آية ١٦	= باعوا بلغة هذيل.
«فلا رفث»	آية ١٩٧	= الجماع بلغة مذحج.

ألا يدل هذا على اختلاف المدلولات بين اللهجات مما يؤكد أن العرب جميعاً لم يكونوا على مستوى واحد فى فهم مدلولات القرآن الكريم.

٢ـ ذكر ابن قتيبة فى كتابه (المسائل) أن العرب لاتستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن

من الغريب والمتشابه، بل لبعضها الفضل فـى ذلك على بعض ، والدليل عليـه قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، ثم قال ابن قتيبة ويدل عليه قول بعضهم: يا رسول الله إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب مانعرفه، ونحن العرب حقا؟ قال: إن ربى علمنى فتعلمت».

٣ـ وقد ذكر ابن تيـمية فى مقدمته «أصول التـفسير» :أنه يجب أن يعلـم أن النبى ﷺ بين لاصحابه معانى القرآن كمـا بين لهم ألفاظه فقوله تعالي:﴿لتبين للنـاس مانزل إليهم﴾ يتناول هذا ، وهذا، وقد قال أبو عبدالرحـمن السلمى :«حدثنا الذين كانوا يُقْرِئُونـنا القرآن كعثمان ابن عفان، وعبدالله بن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلـموا ما فيها من العلم، والعمل، قالوا فتعلمـنا القرآن والعلم والعمل جميعاً».

فهذه النصوص التى قدمتها ترد قول ابن خلدون السابق، وتشير إلى أن العرب لم يكونوا على درجة واحـدة فى إدراك معانى القـرآن، بل لبعضهـم الفضل فى ذلك عـلى بعض، وأن الذين لايدركون هذه المعانى مـن حقهم أن يدركوها فالنبى عليه الصلاة والـسلام بينهم يبيّن ماغمض عليهم، ويوضح ماخفى عنهم.

الخطوة الأولى لتفسير القرآن الكريم:

وكان بيـان النبى عـليه السـلام لما غمض، وتـوضيح ماخـفي، هو الخطـوة الأولى لتفـسير القرآن، وإليك الدليل:

١ـ لما نزل قوله تعالى: «الذين آمنوا ولـم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن» قال بعض الصحابة: وأيـنا لـم يظلم نفسـه؟ ففسر النبى عليـه الصلاة والسلام الظلم بـالشرك، واستدل عليه بقوله تعالى: «إن الشرك لظلم عظيم».

٢ـ سألت عائشـة رضى الله عنها رسول الله ﷺ عن الحسـاب اليسير فى قوله تـعالى: «فأما

من أوتى كتابه بيمينه. فسوف يحاسب حساباً يسيراً» فبين لها النبى عليه الصلاة والسلام أنه العرض يوم القيامة.

٣ ـ حديث عدى بن حاتم قال: لما نزلت:«حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» عمدت إلى عقال أسود، وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر فى الليل، فلا يستبين لى ، فغدوت على رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فقال:«إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار».

وهذه الخطوة الأولى من التفسير التى بدأت على يد النبى عليه الصلاة والسلام موضع اتفاق بين العلماء جميعاً ، ذلك لأن السنة هى الضوء الكاشف لماأجمله القرآن ولم يفصله، والسنة هى التى حددت لنا عدد الصلوات، وعدد الركعات والسجدات فى الصلاة، وهى التى بينت لنا مقدار النصاب فى الزكاة، ولذلك رد عمران بن حصين على كل رجل كان يرى أن القرآن حوى كل شيء، فقال له: إنك رجل أحمق، أتجد الظهر فى كتاب الله أربعاً لايجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدد عليه الصلاة، والزكاة، ونحو ذلك ثم قال: أتجد هذا فى كتاب الله لنا مفسرا؟ إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، وأن السنة تفسر هذا.

هذا وقد ثار الجدل بين العلماء حول تفسير النبى ﷺ للقرآن هل فسر القرآن الكريم كله أو فسر جزءا منه، أو فسر فقط ماأشكل من آياته؟

فى رأيى أن النبى عليه السلام لم يفسر القرآن كله متتبعا سوره ليفسر آياتها آية آية كما يفعل ذلك المفسرون، لأنه لو فعل ذلك لأغلق باب التفسير...ووقف الفكرعند هذا الحد، وبذلك يتعطل الاجتهاد ويتجمد الفكر، والإسلام من أخص خصائصه أن يتيح الطريق للأفكار العطشى أن تنهل من معين القرآن ماشاء لها أن تنهل، بشرط أن تكون أدوات التفكير متكاملة ، ومن ثم ازدهر التفسير وتعددت مناهجه عبر القرون إلى يومنا هذا.

ولكن الذى يمكن أن يقال: إن النبى عليه الصلاة والسلام تناول فى تفسيره الأمور التى تحتاج إلى بيان فى العقيدة أو العبادة أو المعاملة أو السلوك، وما كان فى إطار غير هذا الإطار تركه النبى ﷺ للعرب يفهمونه بلغتهم ، وعلى مقتضى أساليبهم فى فنون القول . ولا أستطيع فى هذا البحث الموجز أن أبين مناهج التفسير المختلفة فى عصر الصحابة أو

التابعين، ومن جاء بعدهم ، ولكن الذى أستطيع أن أتبينه هناأن من أهم مصادر التفسير ومناهجه تفسير القرآن بالقرآن.

تفسير القرآن بالقرآن:

وتفسير القرآن بالقرآن يتوقف على الإدارك الواسع، والفهم الدقيق لآياته، والنظرإلى الآيات المتكررة وربطها بعضها ببعض، وجمعها فى إطار واحد لينظر إليها فى صورتها المتكاملة، وأن الإشعاعات الفكرية التى تعطيها هذه الصورة المتكاملة تزيل التناقضات، والاختلافات التى يرمى بها الجهلة كتاب الله،و كتاب الله منها بريء لأنه كتاب أحكمت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير.

وفهم القرآن ليس سهلاً ، لأنه يحتاج إلى تصفية النفس من أكدارها، والعقل من شبهاته، والقلب من خطراته، ولاأدل على ذلك من كلمة على كرم الله وجهه، وقد سئل : هل خصكم يا أهل البيت رسول الله ﷺ بشيء؟ فقال: ماعندنا غير ما فى هذه الصحيفة، أو فهم يؤتاه الرجل فى كتاب الله.

والزبيدى يبين أن مرتبة فهم كتاب الله مرتبة عظيمة ويستدل لذلك بقوله تعالي: «ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما» فإنه تعالى خصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم، وجعله مقدما على العلم والحكم، فهذه الأمور تدل على أن فى فهم معانى القرآن مجالا رحبا، ومتسعا بالغا، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه.

وتفسير القرآن بالقرآن يتمثل فى صور متنوّعة أذكر منها ما يأتى:

١. المعانى المتعدّدة للكلمة الواحدة.

ذلك لأن الكلمة الواحدة فى القرآن الكريم قد تتصرف إلى عشرين وجها أو أكثر أو أقل، ولايوجد ذلك فى كلام البشر - من ذلك كلمة الهدى فهي:

= بمعنى البيان فى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

= بمعنى الدين فى قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾.

= وبمعنى الإيمان فى قوله تعالى : ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾.

= وبمعنى الداعى فى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

= وبمعنى الرسل أوالكتب فى قوله تعالى : ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾.

= وبمعنى الرشاد فى قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾.

= وبمعنى التوراة فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾.

= وبمعنى الحجة فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

بعد قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾.

= وبمعنى التوحيد فى قوله تعالى: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ﴾.

= وبمعنى السنة فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

= وبمعنى الإلهام فى قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾... إلخ

٢-التكرار:

والتكرار تفسير وتوضيح، فقصة موسى عليه السلام ذكرها الله تعالى - كما قال بعضهم - فى مائة وعشرين موضعاً فى كتابه، ومع ذلك التكرار فإن الصورة لاتهتز، لأنه تفنن فى القول، وإبداع فى التصوير، وأساليب مختلفة تساق لقصة واحدة، وفى هذا من البلاغة ما فيه.

على أن التكرار لايخلو من زيادة مفيدة، ففى قصة موسى مثلا نجد أن الله تعالى صور العصا فى سورة طه آية (٢٠) بأنهاحية تسعي، وذكرها فى الأعراف آية (١٠٧) بأنها ثعبان مبين، وفى موضع آخر - تهتز كأنها جان ولى مدبرا -:

ويعقب السيوطى فى الاتقان على صور العصا المختلفة بقوله : «إن خلقها خلق الثعبان العظيم، واهتزازها وحركتها كاهتزاز الجان وخفته».

ويبين الزركشى بعض الأسباب التى من أجلها كررت القصة فى القرآن فيقول:

١ - إن الرجل كـان يسمع القـصة من القرآن ثـم يعود إلى أهلـه، ثم يهاجر بـعده آخرون يحكـون عنه ما نزل، فـلولا تكرار القـصة لوقعـت قصة موسى إلـى قوم، وقصة عيـسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها فيكون فيه إفادة لقوم، وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين، وهم الحاضرون.

٢- ومن الأسباب تسلية النبى عليه الصلاة والسلام، وتكرار هذه التسلية ليثبت قلبه دائما فى مجـال دعوته إلى الحق كمـا قال تعالى :«وكلا نـقص عليك من أنـباء الرسـل ما نثـبت به فؤادك».

٣ - إن الدواعى لاتـتوفر على نقـلها كتوفرهـا على نقل الأحـكام فلهذا كررت الـقصة، دون الأحكام.

وإنى أميل إلى رأى ابن فارس فى قوله :إن تكرار القـصة نوع من الإعجاز القرآنى لبلغاء العـرب وفصحـائهـم، فبعـد أن عجزوا عـن الإتيـان بمثل آيـة، بين لهـم وأوضح الأمـر فى عجزهم، بـأن كرر ذكر القصة فى مـواضع إعلاما بأنهم عـاجزون عن الإتيان بمثلـه بأى نظم جاءوا، وبأى عبارة عبّروا. ويؤيد هذه الفكرة الإمام الباقلانى فى إعجاز القرآن فيقول:

«ونظرنا القرآن فـيما يعاد ذكره من القصة الـواحدة فرأيناه غير مختلـف ولامتفاوت، بل هو على نهاية البلاغة، وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك أنه مما لايقدر عليه البشر».

على أن الناظر إلى قصص القرآن يجد أن الهـدف من التكرار هو الهداية والعبرة، وكأن هذا التكرار يذكر الأمم دائـما بالمصير الوبيل الذى حل على هؤلاء الـناس الذين وقفوا من دعوات أنبيائهم موقف التحدى والنكران.

٣ - توضيح الفكرة بضروب من الاستدلالات المختلفة:

ومن تـفسير الـقرآن بالقـرآن أن الفكـرة تتضح أبـعادها وتـنكشف جـوانبها، إذا تـعددت الاستدلالات عليها من واقع الحياة، وبذلك يطمئن الـقلب إليها. وتستريح النفس لها،ويؤمن العقل بها، والمثال على ذلك قصة البعث والإعادة:

وقد سلك القرآن الكريم لتفسير قصة البعث طرقا مختلفة:

١ - قياس الإعادة على الابتداء بقوله تعالى: ﴿كما بدأكم تعودون﴾.

٢ - قياس الإعـادة على إحياء الأرض بـعد موتها بـالمطر والنـبات بقوله تـعالى: ﴿ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تُخرجون﴾.

٣ - قياس قدرة الإعادة على قدرة إخراج النار من الشجر الأخضر.

وقد ورد فـي هذا أنّ أبي بن خـلف لماجـاء بعظام بـالية ففـتها وذرهـا فى الهواء، وقـال يا محمد: «من يحيي العظـام وهى رميم؟» فأنزل الله تعالى: ﴿قل يحييها الذى أنشأها أول مرة﴾ ثم زاد الحجاج بقوله: «الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا».

٤ - احتمال اللفظ معنيين فى موضع، وتعيين واحد منهما فى موضع آخر:

ومن تفسيـر القرآن بالقرآن أن اللفـظة أوا لكلمة تحتمـل معنيين فى موضـع ثـم يعين أحد المعنيـين فى موضع آخر وذلك كـقوله تعالى: «ختـم الله على قلوبـهم وعلى سمعـهم وعلى أبصارهم غشاوة»، فيحتـمل أن يكون السمع معطوفاً على «قلوبهـم» ، ويحتمل الوقف على «قلوبـهم، والابتداء بقولـه (وعلى سمعـهم) والاحتمال الأول أولـى لقوله تعالـى فى سورة الجاثية ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ .

وكقوله تعالى: ﴿ويستغفرون لمن فى الأرض﴾ والمراد بهم المؤمنون بدلـيل قوله تعالى فى موضع آخر: «ويستغفرون للذين آمنوا».

٥ - الاستنباط مع ضميمة أخرى تعين عليه:

وذلك كاسـتنباط عـلى وابن عبـاس رضى الله عنهمـا أن أقل الحمل سـتة أشهر مـن قوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ مع قـوله تعـالى: ﴿وفصاله فى عامين﴾، وعلـى هذا الاستنباط جرى الإمام الشافعي.

وكاستنباط بعض المتكلمين أن الله خـالق لأفعال العباد من قوله تعالى: ﴿وما تـشاءون إلا أن

يشاء الله﴾ مع قوله تـعالى :﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾ فإذا ثبت أنه يخـلق ما يشاء، وأن مشيئة العبد لاتحصل إلاإذا شاء الله أنتج أنه تعالى خالق لمشيئة العبد.

٦ - رفع التناقض وإزالة الاختلاف:

وذلك كقوله تعالي:﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ مع قوله تعالى ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾.

جمـع بينـهما بعـض العلـماء، فحـمل الأول على الـتوحيـد بدليـل قوله تعـالى بعـدها: ﴿ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون﴾، وحمل الثانية على الأعمال.

ومثله قوله تعالى :﴿وإذا واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ مع قوله تعالى ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر﴾.

قيـل: إن آية الأعـراف تجرى عـلى الـظاهـر من أن الـوعد كـان ثلاثين ثم أتم بـالعـشر، فاستقرت الأربعون، ثم أخبر فى آية البقرة بما استقر.

وقد سأل رجل بعض العلـماء عن قوله تعالى :﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، فأخبر أنه لايقسم، ثم أقسم فى قوله تعالى ﴿وهذا البلد الأمين﴾ فقال له :اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحـضرة رجال ، وبين ظـهرانى قوم، وكـانوا أحرص الخلـق على أن يجـدو فيه مغـمزا، وعليه مطعنا، فلو كـان هذا عنده تناقضاً لتعلقوا به، وأسرعوا بالرد عـليه ، ولكن القوم علموا وجهلـت، فلم ينكـروا منه ما أنكرت، ثـم قال له: إن العرب قـدتدخل (لا) فى أثنـاء الكلام وتلغى معناها، وأنشد عليه أبياتاً.

٧ - علم المبهمات:

ومن تفسير القرآن بالـقرآن علم المبهمات، هكذا أطلق عليه علـماء التفسير، والمراد به أن يبهم فى موضع استغـناء ببيانه فى موضع آخر فى سياق الآية، ويمثلـون له بقوله تعالي:«مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» فقد بين يوم الدين بقوله فى موضع آخر فى سياق الآية: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لا تَملِكُ نَفْسٌ لِنَفسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئذٍ لِلَّهِ﴾.

وكقوله تعالى :﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فقد بينه بقوله : ﴿أُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾.

٨- تفسير الألفاظ الغريبة:

وهو ضرب من تفسير القرآن بالقرآن، وتفسيرها بـالسياق القرآنى نفسه، ويمثلون له بقوله تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعا﴾ وقد فسر السيـاق القرآنى نفسه هذا الهلوع بـقوله بعد ذلك «إذامسه الشر جزوعا. وإذا مسه الخير منوعا﴾.

٩- تفسير المراد بنص صريح يبين خفاءه:

لما نـزل قوله تعـالى :﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ اضطرب الصحابـة، لأنهم اعتقدوا أنـهم سيحاسبـون على كل شىء حتـى خواطر أنفسهـم وحركات قلوبهم. فقالوا يـا رسول الله :نزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها. فقـال لهم النبى ﷺ :أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنـا وعصينا، بل قولوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليـك المصير. فأخذوا يتـضرعون بهذه الدعوات حـتى أنزل الله بيانها فـى نص صريح وهو قوله:« لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » إلى آخـر السورة، وبـعد نزولـها عـلموا أنـهم لا يحاسبون على خطرات النفس ، وهواجس القلب.

ولما توفى عبدالله بن أبي، كبير المنافقين، كفنه النبى عليه الصلاة والسلام فى ثوبه، وأراد أن يستغفر له، ويصلى عليه ، فقال عمـر رضى الله عنه : أتصلى عليه وقد نهاك ربك؟ فقال ﷺ: إنما خيـرنى ربى فقـال:«استغفر لـهم أو لا تسـتغفر لهـم، إن تستغفـر لهم سبـعين مرة...».. وسأزيد على السبعين وصـلى عليه بناء على هذا الفهم الإنساني، ولـكن القرآن وضع النقاط على الحروف ليـزيل خفاء المعني، ويمنـع اللبس، حيث قال تعـالى بعد ذلك:﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾.

١٠- الإجمال والتفصيل:

هناك آيات قرآنـية وردت مجملة موجزة، وأخـرى موضحة مفصلة فـى موضوع واحد،

ونحـن إزاء هذه الآيات يـجب ألا نقـف عند المجمـل وحده من غـير نظـر إلى الآيات الـتى فسرتـه وفصلتـه، ولو فعلـنا ذلك لوقـعنا فى الخطـأ لأننا أخذنـا الحقيقـة مغلفـة ولاندرى ما بداخلها.

ويمثلون لهذا النوع من التفسير بقوله تعالي: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ولكن ما الذى يتـلى علينا، ويحرم عـلينا أكله؟ لم تـبينه هذه الآية، ولكـنها أجملت مايتـلى فى هذا الموقف، وتعود الآيات بعد ذلك لتوضح هـذا الذى يتلى فيقول تعالى :﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ إلى آخر الآية.

وقوله تعالى :﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ فسرتها آية ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

وبعد، فإن المنهج السـليم لتفسير القرآن الكريم يجب أن يـتناول أولا وقبل كل شيء هذه الآيات المتعدّدة التى يفسـر بعضها بعضا، ولايستطيع المفسر المنصـف أن يبنى حكما، أو يقرر رأيا أو يكشف معنى إلا بعـد استيعابه الكامل لهذا اللون من التفسـير، ألا وهو تفسير القرآن بالقرآن.

* * *